

19

مَحَبَّةٌ قَلْبِيَّةٌ بِمَنْزِلَةِ الْمَحَبَّةِ الْإِسْقِيَّةِ

الجزء الثاني

مَكَانُهَا بَيْنَ نِسَاءِ النَّبِيِّ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
مريشة : ا. عبد الشافي سيد
اشراف : ا. حمدي مصطفى

பாடிவாங்கு வாங்கு பாடிவாங்கு

آن الأوان لكى تهاجر رملة بنت أبي سفيان والمسلمون
إلى المدينة المنورة ، حيث كان المسلمون هناك يحتفلون
بنصرهم المؤزر على اليهود في غزوة خيبر ، وودع
النجاشي المسلمين الذين عاشوا في كنفه وتحت رعايته ،
ينعمون بالأمن والأطمئنان ، وأوصاهم أن يقرئوا الرسول ﷺ
السلام .

واستقبلت المدينة المنورة خبر رملة والمهاجرين من
الحبشة بالبشر والترحاب ، وكان جعفر بن أبي طالب أميرا
على هؤلاء المهاجرين ، وما إن رآه الرسول ﷺ حتى قام
إليه بنفسه واحتضنه ثم قبل ما بين عينيه وقال فى سعادة :
- واللّه ما أدرى بأيهما أفرح ؟ أبتح خيبر ؟ أم بقدوم
جعفر ومن معه من المسلمين .

وضم الرسول ﷺ رملة بنت أبي سفيان إلى نسائه ،
وأخذت تبوأ مكانها فى حياة النبي ﷺ يوما بعد يوم ،
فهى امرأة جاهدت فى سبيل الله ، وصبرت على الابتلاء ،
فكافأها الله (تعالى) بالزواج من رسول الله ﷺ .

كانت رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ سَعِيدَةٌ بِزَوْاجِهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ،
واعتبرت هي وأهلها هذا الزواج تشريفاً لها ولقومها ،
ورفعاً لأقدارهم ، غير أن أهم ما كان يؤرقها هو كفر أبيها
الذي ربّاها وأنفق عليها ، وتصديه لزواجها ﷺ بكل
ما أوتي من قوة .



وتمنّت رَمْلَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ الْمُعْجِزَةَ ، وَيُسَلِّمَ أَبُوهَا ، وَيَنْضُمَ
إِلَى كَتِيبَةِ الْإِيمَانِ . . وهل ذلك على الله ببعيد ؟ ألم يسلم
من قبل عمر بن الخطاب وكان من أشد الناس عداً للرسول ﷺ ؟
فلم لا يفتح أبوها قلبه ، ويصغي لصوت الحق ؟

ولعل رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ كَانَتْ تَرْجُو أَنْ تَكُونَ
فِي مَكَانَةِ عَائِشَةَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ ، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ زَوْجَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَكِنْ أَنَّى لَهَا ذَلِكَ ؟ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قَدْ بَشَّرَهُمَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ ، أَمَا أَبُوهَا فَهُوَ مَا يَزَالُ عَلَى
عِنَادِهِ وَكُفْرِهِ !

وَمَضَتْ الْأَيَّامُ مُسْرِعَةً ، وَرَمْلَةٌ تَعِيشُ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ تَنْعَمُ
بِرُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْظِي بِقُرْبِهِ ، وَكَانَتْ تَدْرِكُ بِحَسْبِهَا
وَوَعْيِهَا أَنَّ الْمُوَاجَهَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ،
وَأَنَّ زَوْجَهَا ﷺ سَيَخُوضُ حَرْبًا لَا هَوَادَةَ فِيهَا ضِدَّ أَبِيهَا
وَالْمَشْرُكِينَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ .

وَأَكَّدَتْ الْأَيَّامُ صِدْقَ حَدْسِ رَمْلَةٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) ، فَقَدْ

أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالِاسْتِعْدَادِ لِفَتْحِ مَكَّةَ ، بَعْدَ أَنْ
نَقَضَ الْمُشْرِكُونَ الْعَهْدَ الَّذِي وَقَعُوهُ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ .
وَعَلِمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيَغْزِيهِمْ فِي جَيْشٍ
كَبِيرٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يُرْسِلُوا أَحَدَهُمْ إِلَيْهِ
لِكَيْ يَفَاوِضَهُ وَيَطْلُبَ مِنْهُ الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنْهُمْ ، وَاسْتَقَرَّ
رَأْيُهُمْ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ وَقَالُوا لَهُ :



- أَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ قُرَيْشٍ ، وَابْنُكَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ
أَجْدَرَنَا بِمِنَاقِشَةِ مُحَمَّدٍ وَالتَّفَاوُضِ مَعَهُ مِنْ أَجْلِ تَمْدِيدِ الصُّلْحِ .
وَوَافِقَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى
مَضَضٍ ، فَقَدْ كَانَ لَا يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ
وَيَخَاطِبُهُ بَعْدَ هَذَا الصَّرَاعِ الطَّوِيلِ وَالْحُرُوبِ الضَّرُوسِ ،
الَّتِي أَجَّجَ أَبُو سُفْيَانَ نِيرَانَهَا .
وَتَسَلَّلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ خَفِيَّةً حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ ،
وَقَالَ لِنَفْسِهِ :

- لَمْ لَا أَذْهَبُ إِلَى ابْنَتِي رَمْلَةَ فَقَدْ تَشَفَّعَ لِي عِنْدَ زَوْجِهَا
وَتُسَهِّلُ عَلَيَّ الْأَمْرَ .

وَذَهَبَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى بَيْتِ ابْنَتِهِ رَمْلَةَ ، فَحَيَّاها وَاطْمَأَنَّ
عَلَى أَحْوَالِهَا وَقَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

- لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ لِكَيْ تَشْفَعِيَ لِي عِنْدَ زَوْجِكَ يَا ابْنَتِي ،
فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَنْوِي غَزْوَ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا ، حَيْثُ أَهْلُكَ
وَعَشِيرَتُكَ !

فَسَكَتَتْ رَمْلَةُ وَلَمْ تُجِبْهُ ، فَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّ الرِّسُولَ ﷺ ،

ما دام عزم على شيء فهو سيمضي إليه بإذن الله ، لأنه
لا يتحرك عن أمره ، ولكنه يسير تبعاً لإرادة السماء .
وهم أبو سفيان أن يجلس حتى يعود رسول الله ﷺ
فيكلمه بنفسه ، ونظر في أرض الحجرة ، فوجد فراشا ،



فأراد أن يجلس عليه ، لكن ابنته أسرعَتْ وطوت الفراش قبل أن يصل إليه .

وتعجب أبو سفيان من صنيع ابنته ، وسألها في دهشة :

- يا ابنتي لم طويت الفراش عني ؟ هل رغبت بهذا الفراش عني ، أو أن هذا الفراش لا يليق بأبيك ؟
فقلت رملة :

- ورب محمد ، ما رفعت هذا الفراش ، إلا لأنك رجل مشرك بالله ، فكيف آمنك على فراش يجلس عليه رسول الله ﷺ ؟

وأحس أبو سفيان بالحزن يعتصر قلبه فقال لابنته :
- يا بنية ، لقد أصابك بعدى شر .
فقلت في ثقة :

- بل أنت الذي أصابك الشر كله بكفرك بالله !

وخرج أبو سفيان من عندها حزينا حتى أتى النبي ﷺ فطلب منه أن يزيد مدة الهدنة ، فلم يرد عليه الرسول ﷺ بما يريحه .

فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصديق فتوسَّلَ به لكي
يكلم رسولَ الله ﷺ ، لكنَّ أبا بكرٍ رفض ذلك وقال :
- ما أنا بفاعل .

ولمَّا يئس أبو سفيان من أبي بكرٍ ذهب إلى عمر بن
الخطَّاب فكلَّمه ، لكنَّ عمر قال له :



- أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

(أى لو لم أجد إلا الحصى أو التراب لجاهدتكم به) .
وانطلق أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب ، فدخل عليه وقال له :

- يا علي ، إنك أقرب القوم بي رحماً ، وإنى جئت فى حاجة ، فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى رسول الله ﷺ .

فقال علي بن أبي طالب :

- ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

وكانت فاطمة (رضى الله عنها) واقفة ومعه ابنها الحسن ، فالتفت إليها أبو سفيان وقال لها :

- يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ :

- وَاللَّهِ ، مَا بَلَغَ بَنِي هَذَا أَنَّ يُجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا يُجِيرُ
أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ الْأَمْرَ جَدًّا لَا هَزْلَ فِيهِ ، طَلَبَ مِنْ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ النَّصِيحَةَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ
جَاءَ ، وَأَنَّ يَنْتَظِرَ مَا سَوْفَ تَسْفِرُ عَنْهُ الْأَيَّامُ الْمُقْبِلَةُ ، فَعَادَ
أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ فَشَلَ فِي مُحَاوَلَتِهِ ، وَأَخْبَرَ أَهْلَ
مَكَّةَ بِمَا حَدَثَ ، فَعَاشُوا فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ .



وعاد الرسول ﷺ إلى بيت زوجته رَمْلَةَ بنتِ
أبي سفيان ، فأعلمها بأمر أبيها وما جاء من أجله ، فدعت
للرسول ﷺ وللمسلمين بالفتح ، ثم قصت على رسول الله ﷺ
ما صنعت مع أبيها حين أراد أن يجلس على فراشه ، فابتسم
الرسول ﷺ ، ورضي بما صنعت ، وزادت مكانتها في قلب
الرسول ﷺ وفي قلب كل مؤمن ومؤمنة .

وبقيت أم حبيبة رَمْلَةُ بنت أبي سفيان تدعو الله أن يهدي
أباها إلى الإسلام ، وما ذلك على الله بعزيز ، وكلما تسلل
اليأس في إيمان أبيها إلى قلبها كانت تتلو قوله (تعالى) :

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم
مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ٧]

وقد نزلت هذه الآية حين تزوجها النبي ﷺ ، ولعل الله
أن يكون قد أراد بأبيها وقومها خيراً .

ومرّت الأيام وفتح المسلمون مكة وحطموا الأصنام
الملتفة حول الكعبة ، وجاء أبو سفيان في حماية العباس عم
النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ :

– وَيُحَكِّ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

– يَا أَبَتِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ! وَاللَّهِ

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ إِذْنٌ لَأُغْنِيَ عَنِّي شَيْئًا ،

وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ !



فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ :

— وَيَحْكُ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي

رَسُولُ اللَّهِ ؟

لَكِنْ أَبَا سُفْيَانَ تَرَدَّدَ فِي الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي

أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ مَالَبَتْ أَنْ تشرحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَرَادَ

الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَتَأَلَّفَ قَلْبَهُ فَقَالَ :

— مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ !

وَعَتَدْتُذَلِّمْ يَعْدُ فِي حَيَاةِ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةً بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ

مَا يَعْكَرُ صَفْوَاهَا ، فَقَدْ آمَنَ أَبُوهَا وَقَوْمُهَا ، وَضَرَبَ زَوْجُهَا ﷺ

أَرْوَعَ مَثَلٍ فِي السَّمَاةِ وَالرَّحْمَةِ ، بَعْدَ أَنْ عَفَا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ ،

وَجَعَلَ لِأَبِيهَا مَكَانَةً كَبِيرَةً إِكْرَامًا لَهَا .

وَعَاشَتْ رَمْلَةً (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ

وَرَأَتْ تَرَوِي عَنْهُ مَا سَمِعَتْهُ مِنْ أَحَادِيثَ ، وَرَوَى عَنْهَا كَثِيرٌ

مِنَ الصَّحَابَةِ .

وَحِينَ حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ دَعَتْ إِلَيْهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ وَرَأَتْ

تَطْلُبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ تُسَامِحَهَا لِكَيْ تَلْقَى اللَّهَ نَقِيَّةً

خَالِيَةً مِنَ الذُّنُوبِ فَقَالَتْ لِعَائِشَةَ :

— قَدْ كَانَ يَكُونُ بَيْنَنَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الضَّرَائِرِ فَغَفَرَ اللَّهُ

لِي وَلَكَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ :

- يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ .

فَسَعِدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ وَقَالَتْ :

- سَرَّرَنِي سِرُّكَ اللَّهُ !

وَصَعِدَتْ رُوحُهَا الطَّاهِرَةُ إِلَى بَارئِهَا فِي عَامِ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ

فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا مُعَاوِيَةَ ، رَحِمَهَا اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَنَفَعْنَا

وَنَفَعَ أُمَّهَاتِنَا وَبَنَاتِنَا وَنِسَاءَنَا بِسِيرَتِهَا الْعُطْرَةِ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

ميمونة بنت الحارث الهلالية (امرأة أحببت الله ورسوله)

رقم الإبداع : ٢٠٠٣/٧٣٢٦

التقديم العلوي : ٤ - ٧٦٦ - ٢٦٦ - ٩٧٧